

دراسات



# المقاربة الإسلامية في تحديد مفهوم الفساد

عنتر بن مرزوق<sup>(\*)</sup>

جامعة محمد بوضياف، المسيلة - الجزائر.

## مقدمة

يشكل الفساد أعظم المصائب التي يعانيتها العالم عامة، والمجتمعات المتخلفة خاصة، ذلك أنه يجعل من إمكانية تحقيق العدالة الاجتماعية والمساواة الإنسانية مطلباً مستحيل التحقيق، إذ يؤدي في غالب الأحيان إلى استبداد الإنسان واستغلاله لأخيه الإنسان، مولداً في النهاية تكوين فرق طبقية: أقلية فاسدة تزدد ثراءً ونفوذاً وطغياناً، وأكثرية من ضحايا الأقلية الفاسدة تعاني فقراً وبؤساً واستغلالاً وحرماناً.

وإذا كان العدل أساس الملك، فإن الفساد أساس الاستبداد، وما انتشر الاستبداد في العالم إلا نتيجة لشيوع ظاهرة الفساد، هذه الأخيرة التي لا تختص بها دولة دون أخرى، ولا مجتمع دون آخر، فهي تكاد تكون القضية الرئيسية الموجودة في كل المجتمعات، إذ لا يوجد على وجه الأرض ذلك المجتمع المثالي الذي يخلو من مظاهر الفساد والإفساد.

غير أن هذا لا يمنع وجود تفاوت كبير بين هذه المجتمعات، سواء من حيث حجم الانتشار أو خطورة الآثار أو السبل المعتمدة للحد من مختلف الأخطار، فالدول المتقدمة، وإن احتوت على قدر معين من الفساد، إلا أنها تملك من الآليات والميكانيزمات التي تمكنها من احتوائه والحد من أخطاره وآثاره. أما الدول المتخلفة، فقد أصبح الفساد فيها يمثل نظاماً قائماً بذاته، له لابعوه ومؤيدوه ومعارضوه، مما أدى في النهاية إلى تكوين جمهورية يمكن أن نطلق عليها «جمهورية الفساد» التي لا تختلف عن الجمهوريات القائمة إلا من حيث معيار الرسمية واعتماد الأساليب السرية.

ولما كان الفساد من أخطر الأمراض التي تعانيتها الأمم والمجتمعات، فقد حاول الإسلام مكافحتها وعلاجها، ليس عبر التفكير والتنظير فقط، بل عبر التطبيق والتحقيق أيضاً، وذلك من خلال نصوص القرآن الكريم، وتعاليم سيد الأولين والآخرين، وكتابات العديد من الباحثين والمفكرين والمصلحين.

فما هي أهم معاني الفساد في الشريعة الإسلامية؟ وما مضامينها المفاهيمية؟ وكيف عالجه أغلب المفكرين والباحثين لما صارت ظاهرة تعانيتها معظم الدول الإسلامية؟ سنحاول الإجابة عن هذه الأسئلة بتقسيم الموضوع إلى مبحثين أساسيين:

## أولاً: تحديد مفهوم الفساد بين تباين الدلالات اللغوية وتعدد معاني الشريعة الإسلامية

سنحاول في ما يلي تقديم أهم الدلالات اللغوية لمصطلح الفساد، سواء في اللغة العربية أو اللغات الأجنبية، لنعرّج بعدها على تناول أهم معانيه الواردة في الشريعة الإسلامية، وذلك من خلال الاستدلال بالعديد من الآيات القرآنية وبعض الأحاديث النبوية.

### ١ - الدلالات اللغوية لمصطلح الفساد

إن لفظ «الفساد» قد ورد في العديد من الكتب والموسوعات والقواميس الصادرة، سواء باللغة العربية أو اللغات الأجنبية، حيث اشتق هذا المصطلح في اللغة العربية من الفعل: فَسَدَ: كَنَصَرَ وَعَقَدَ، وَفَسَدَ كَكُرْمٍ، فَسَاداً وَفُسُوداً، ضِدّاً صُلْحٍ، فَهُوَ فَاسِدٌ وَفَسِيدٌ مِنْ فَسَدٍ، وَالْمَفْسَدَةُ ضِدُّ الْمَصْلَحَةِ<sup>(١)</sup>. ويقال قوم فسد، كما قالوا: ساقط وسقطى. قال سيبويه جمعه جمع «هلكى» لتقاربهما في المعنى... وقالوا: هذا الأمر مفسدة لكذا، أي فيه فساد، وفسد الشيء إذا أباه، أي إذا أهلكه وأفسده... والفساد خروج الشيء عن الاعتدال، قليلاً كان الخروج عنه أو كثيراً، ويضاده الصلاح، ويستعمل ذلك في النفس والبدن والأشياء الخارجة عن الاستقامة<sup>(٢)</sup>. وقيل إن الفساد هو الخلل والوهن في الشيء أو البطلان في العقود أو الابتداء واللهو واللعب وأخذ المال ظلماً والجذب<sup>(٣)</sup>. ويقول ابن منظور في لسان العرب عن الفساد في اللغة إنه: «نقيض الصلاح، وَفَسَدٌ يُفْسِدُ وَيُفْسِدُ وَفَسَدٌ فَسَادٌ وَفُسُودٌ، فَهُوَ فَاسِدٌ وَفَسِيدٌ فِيهِمَا... وَفَسَادُ الْقَوْمِ تَدَابَرُوا وَقَطَعُوا الْأَرْحَامَ... وَالْمَفْسَدَةُ: خِلَافُ الْمَصْلَحَةِ وَالْإِسْتِفْسَادُ خِلَافُ الْإِسْتِصْلَاحِ... وَيُقَالُ: أَفْسَدَ قُلَانُ الْمَالِ يُفْسِدُهُ إِفْسَاداً وَفَسَاداً، وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ»<sup>(٤)</sup>.

ومثلما هو حال اللغة العربية، فقد جاءت اللغات الأجنبية غنية بلفظ «الفساد» الذي تتعدد معانيه وتختلف دلالاته واستعمالاته، حيث اشتق هذا المصطلح (Corruption) في اللغة الإنكليزية من الفعل الثلاثيني (Rumpère)، أي كسر شيء ما، وقد يكون هذا الشيء المراد

(١) قندوز محمد الماحي، قواعد المصلحة والمفسدة عند شهاب الدين القرافي من خلال كتابه الفُرُوق (بيروت: دار ابن حزم للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٦)، ص ١٢٩.

(٢) عبد السلام حمدان اللوح وضيائي نعمان السوسي، «الفساد وأسبابه: دراسة قرآنية موضوعية»، مجلة الجامعة الإسلامية، السنة ١٥، العدد ٢ (حزيران/يونيو ٢٠٠٧)، ص ١٦٩.

(٣) جرجي شاهين عطية، المعتمد: قاموس عربي - عربي، ط ٢ (بيروت: دار صادر، ٢٠٠٠)، ص ٤٩٣.

(٤) أبو الفضل محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، ١٥ ج (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠٣)، ج ٣، ص ٤١٢ - ٤١٣.

كسره هو مدونة لسلوك أخلاقية أو اجتماعية أو غالباً ما تكون قاعدة إدارية للحصول على كسب مادي<sup>(٥)</sup>.

وتعدّ الرشوة (Bribery) من أكثر المعاني تعبيراً عن مصطلح الفساد في اللغة الإنكليزية، وهو يحدث عادة نتيجة تدهور المبادئ والقيم الأخلاقية، وذلك بانتقالها من الحالة الحسنة إلى الحالة السيئة (Moral Deterioration)، إذ تغيب النزاهة والاستقامة (Without Integrity)، وتضيع الأمانة، وينتشر الغش (Dishonesty) والشر (Evil)، وبذلك فهو يعبر عن حالة التحلل والتعفن والتفسخ (Decomposition) التي يعيشها المجتمع، وذلك من خلال انتشار مظاهر السلب (Spoiling)، والابتزاز (Extortion)، والإسراف والتبذير (Extravagance)، والاحتيال والغش (Fraud)، وإساءة استعمال السلطة والنفوذ (Misuse of Authority and Power)، والمحسوبية والتحيز (Favoritism)، وهي كلها مصطلحات تعبر عن أعمال فاسدة، وهذا ما يؤدي في النهاية إلى تدمير وتخريب (The Destruction) هذا المجتمع، إضافة إلى تشويه الحقائق فيه (Perversion)<sup>(٦)</sup>.

وإذا كانت معاني مصطلح «الفساد» في اللغة الإنكليزية متعددة ومتنوعة، فإنها في اللغة الفرنسية لا تختلف عنها كثيراً، سواء من حيث التعدد أو التعداد، إذ يرد أحياناً هذا المصطلح بمعنى وسيلة لرشوة قاض أو حاكم (Moyens de Corrompre un Juge)، أو تشويهاً للحقيقة (Dépravation de la Vérité)، أو تحريفاً لنص (Changement vicieux dans le Texte)، أو تحريفاً لعقد (Denaturation du Contrat)؛ وأحياناً أخرى قد يحمل معنى الاضطهاد والجور (Oppression)، أو الظلم الواضح (Injustice)، وممارسة العنف والقهر ضد الضعفاء (Violences Exercées Contre les Plus Faibles)، وهذا ما يؤدي إلى إلحاق الضرر والخسارة (Dégâts)، أو التخريب والتدمير والتلف والإبادة (Destruction)، والانحلال والتعفن (Putrefaction)، أو القحط (Stérilité)؛ وتارة أخرى قد يأتي الفساد بمعنى إفساد الآداب والعادات والسلوكيات، وبذلك فهو يشمل جميع الأفعال التي تؤدي إلى الانحلال الأخلاقي لشخص معين وتجعله فاسداً وقذراً (Pourriture)؛ وقد تشمل هذه الأفعال السرقة والاختلاس (Volerie)، والابتزاز (Extortion)، والإسراف والتبذير (Extravagance)، أو خرق

(٥) مي فريد، «الفساد: رؤية نظرية»، السياسة الدولية، العدد ١٤٣ (كانون الثاني/يناير ٢٠٠١)، ص ٣٨.  
(٦) لقد اعتمدنا في تحديد المعنى اللغوي لمصطلح الفساد في اللغة الإنكليزية على المراجع التالية: Meriam Webster: *Meriam Webster's: French-English Dictionary* (New York: Library of Congress Cataloging in Publication Data, 2000), p. 81; *Meriam Webster's Dictionary of Law* (New York: Library of Congress Cataloging in Publication Data, 1996), p. 109; Chauncey A. Goodrich, *An American Dictionary of the English Language* (New York: Harper and Brothers Publishers, 1848), p. 233; *Oxford Word Power*, 5<sup>th</sup> ed. (New York: Oxford University Press, 2006), p. 267; Arvind K. Jain, *Economics of Corruption* (New York: Kluwer Academic Publishers, 1998), p. 13; Sankar Sen Ips, *Human Rights and Law Enforcement* (New Delhi: Concept Publishing Company, 2000), p. 47, and Albert Morehead, Philip D. Morehead and Loy Morehead, *The New Webster Handy College Dictionary*, 4<sup>th</sup> ed. (New York: New American Library, 2006), p. 169.

القوانين (Violation des Lois)، أو شراء الذمم (Conscience des Venalité)، أو اغتصاب السلطة (Tyrannie)، أو التزييف (Truquage)<sup>(٧)</sup> وغيرها من المصطلحات المعبرة عن معنى الفساد.

ومن خلال تطرّقنا إلى الدلالات اللغوية لمصطلح «الفساد»، سواء في اللغة العربية أو اللغات الأجنبية، تبين لنا أنّه يشمل العديد من المعاني التي تحمل صفة السوء والشر، ولذلك نجد كلّ شرفاء العالم يعملون جاهدين على ضرورة مكافحة الفساد، ذلك أن انتشار مختلف مظاهره في المجتمع إنما هو في الحقيقة إيدان بانهييار المجتمع واضمحلاله وزواله، إذ يعمل الفساد عادة على الانتقال من حالة حسنة إلى حالة سيئة، أو من حالة سيئة إلى حالة أسوأ، وبذلك فهو يمثل الخطر الأكبر الذي يهدد جميع الدول والمجتمعات، لأنّه يعمل على تقويض أركانها، وإفشال عملياتها التنموية، والسياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، وإبقائها أسيرة للتهديدات الداخلية والخارجية، حيث تنتشر الجريمة والعنف وعدم الاستقرار والأمن داخلياً، وتبقى الدولة تعاني آثار التبعية خارجياً.

ونتيجة لأهمية دراسة ظاهرة الفساد، كان لزاماً علينا، بعد تناول المعاني اللغوية لها، التعرّف عليها أكثر من خلال التطرّق إلى أهم التعريفات التي قدمت لها من طرف الباحثين والمفكرين، وهذا ما سنستشفه من خلال دراستنا للدلالات الاصطلاحية للفساد... بين معاني الشريعة الإسلامية وتعدّد التعريفات الأكاديمية.

## ٢ - مفهوم الفساد وفق نصوص الشريعة الإسلامية

لما كان الفساد من أعظم النواهي التي أمر الله، سبحانه وتعالى، بتجنّبها، درءاً للشر، وتحقيقاً للصالح والخير، فقد جاءت آيات القرآن الكريم غنيّة بلفظ الفساد ومشقاته، إذ ورد هذا اللفظ في حوالي خمسين موضعاً، كلّ موضع منها يدلّ على معانٍ مختلفة، حيث جاء بمعنى الطغيان والتجبر والتكبر، وذلك في قوله تعالى: ﴿تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً والعاقبة للمتقين﴾<sup>(٨)</sup>، وقوله جلّ وعلا

(٧) لقد اعتمدنا في تحديد المعنى اللغوي لمصطلح الفساد في اللغة الفرنسية على المراجع التالية: سهيل إدريس، المنهل: قاموس فرنسي - عربي، ط ٣٧ (بيروت: دار الآداب للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧)، ص ٣١٢؛ Ellious Bocthor: *Dictionnaire Français-Arabe*, 3<sup>ème</sup> éd. (Paris: Librairie de Firmin didot frères libraires, 1864), p. 204; *Dictionnaire Français-Arabe* (Paris: Librairie de Firmin didot frères libraires, 1829), pp. 187-188; Laurent Remacle, *Dictionnaire Wallon-français, dans lequel on trouve la correction de nos idiotismes vicieux et de nos wallonismes*, 2<sup>ème</sup> éd. (New York: Astor Library, 1839), p. 492; Domingo Gian Trapani, *Nuevo Diccionario espanol- francés, francés- espanol* (Paris: Imprenta de Rignoux, 1826), p. 352; Académie Française, *Dictionnaire de l'académie Française* (Paris: Guillaume Libraire, 1831), p. 322; Albert De Biberstein Kazimirski, *Dictionnaire Arabe-Français* (New Jersey: Corgia Press, 2007), p. 593; Souheil Idriss, *Al Manhal al wasit: Dictionnaire usuel français- arabe*, 11<sup>ème</sup> éd. (Beyrouth: Dar Aladab, 2007); France Loisirs, *Le Robert dictionnaire pratique de la langue française* (Paris: France Loisirs, 2003), p. 367, et Marie-Anne Barrier, *Dictionnaire Encyclopédique* (Paris: Edition Philippe Auzou, 2004), p. 349.

(٨) القرآن الكريم، «سورة القصص»، الآية ٨٣.

في وصف آل فرعون: ﴿الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلَادِ. فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفُسَادَ﴾<sup>(٩)</sup>، حيث ندد القرآن بأعمال فرعون الذي قام باحتقار الناس وإهانتهم وسفك دمائهم وانتهاك أعراضهم وأخذ أموالهم ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيْعًا يَسْتَضَعِف طَائِفَةٌ مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾<sup>(١٠)</sup>.

غير أن لفظ «الفساد» قد يطلقه المفسدون على المصلحين، وهذا ما حصل لقوم فرعون حينما وصفوا دعوة موسى بـ «الفساد»، لا شيء إلا لأنه أمرهم بعبادة الله دون العباد ﴿وَقَالَ الْمَلَأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَنْذِرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَيَذِرْكُمُ الْهَيْكَلُ قَالَ سَتَقْتُلُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ﴾<sup>(١١)</sup> وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد<sup>(١٢)</sup> وهذا رغم أن الفساد كان من عمل فرعون وقومه، ولذلك جاء مصطلح «الفساد» بمعنى السحر في «سورة يونس» حينما قال الباري جل وعلا: ﴿فَلَمَّا أَتَوْا قَالُوا مُوسَى مَا جِئْتُمْ بِهِ السَّحَرُ إِنَّ اللَّهَ سَيُبْطِلُهُ إِنَّ اللَّهَ لَا يَصْلَحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ﴾<sup>(١٣)</sup>.

وقد يأتي لفظ «الفساد» بمعنى الكفر والعمل بالمعصية، وهذا ما يمكن الإشارة إليه في وصف القرآن الكريم لأهل النفاق الذين يفسدون في الأرض ولا يصلحون، ويحسبون أنهم مهتدون، فقال تعالى في حقهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ. أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾<sup>(١٤)</sup> واعتبر الطبري أن من عصى الله في الأرض أو أمر بمعصية فقد أفسد فيها، فالإفساد في الأرض هو العمل فيها بما نهى الله جل ثناؤه عنه وتضييع ما أمر الله بحفظه<sup>(١٥)</sup>.

كما يطلق لفظ «الفساد» على إساءة استخدام المال، وهذا ما حصل لقارون حينما نصحه الصالحون من قومه: ﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ

(٩) المصدر نفسه، «سورة الفجر»، الآيات ١١ - ١٢.

(١٠) المصدر نفسه، «سورة القصص»، الآية ٤.

(١١) المصدر نفسه، «سورة الأعراف»، الآية ١٢٧.

(١٢) المصدر نفسه، «سورة غافر»، الآية ٢٦.

(١٣) المصدر نفسه، «سورة يونس»، الآية ٨١.

(١٤) المصدر نفسه، «سورة البقرة»، الآيات ١١ - ١٢.

(١٥) أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، جامع البيان عن تأويل أي القرآن (بيروت: دار الفكر، ٢٠٠١)، ص ١٦٨.

نشير إلى أننا استعنا في تحديد معاني مصطلح الفساد ومشتقاته بكتب:

عبد الرحمن ابن ناصر السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المئان (الجزائر: دار الإمام مالك، ٢٠٠٩)؛ الحافظ عماد الدين أبي الفداء إسماعيل بن كثير، تفسير القرآن العظيم (الجزائر: دار الإمام مالك، ٢٠٠٦)، وأبي يحيى محمد بن صمادح التجيبي، مختصر من تفسير الإمام الطبري (القاهرة: دار المنار للنشر والتوزيع، ٢٠٠٥).

المفسدين»<sup>(١٦)</sup> غير أنه طغى وآثر الحياة الدنيا، فخرس الله به الأرض وجعله آية للعالمين. وكذلك جزاء كل من أفسد في الأرض وعمل على قتل الناس وترهيبهم ونهب أموالهم وأكل حقوقهم، كما هو شأن العصابات المالية والجماعات الإرهابية، حيث توعددهم الحق تبارك وتعالى بالخزي في الحياة الدنيا والعذاب الشديد في الحياة الآخرة، فقال: ﴿إِنَّمَا جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ويسعون في الأرض فساداً أن يقتلوا أو يصلبوا أو تقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو ينفوا من الأرض ذلك لهم خزي في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب عظيم﴾<sup>(١٧)</sup>.

كما ورد لفظ «الفساد» بمعنى الجذب والقحط، وذلك مصداقاً لقوله تعالى: ﴿ظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون﴾<sup>(١٨)</sup> وهذا كلام مستأنف مسوق لتقرير ما عمّ في مختلف الأنحاء من البر والبحر من مفسدة وظلم ولهو ولعب، وسائر ما يطلق عليه الفساد الذي هو ضدّ الصّلاح<sup>(١٩)</sup>. وجاء بمعنى الشرك واتباع الهوى في عدة آيات كقوله تعالى: ﴿لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسيحان الله ربّ العرش عمّا يصفون﴾<sup>(٢٠)</sup>، وقوله أيضاً: ﴿ولو اتّبع الحق أهواءهم لفسدت السمّوات والأرض ومن فيهنّ بل أتيناهم بذكرهم فهم عن ذكرهم معرضون﴾<sup>(٢١)</sup>.

وقد يأتي مصطلح «الفساد» في القرآن الكريم تارة مرادفاً للتخريب، وهذا ما نستشقه في وصف بلقيس للملوك: ﴿قالت إنّ الملوك إذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزة أهلها أذلةً وكذلك يفعلون﴾<sup>(٢٢)</sup>، وتارة أخرى بمعنى قطع الطريق لقوله تعالى: ﴿ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين﴾<sup>(٢٣)</sup>، وأحياناً أخرى دلالة على قطيعة الأرحام والتدابير بين المسلمين... وقطع كلّ ما أمر الله به أن يوصل، وهذا مصداقاً لقول العزيز الحكيم ﴿والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار﴾<sup>(٢٤)</sup>.

كما قد يعبر «الفساد» عن السرقة، وهذا ما نقرأه في سورة يوسف حينما يتكلم على

(١٦) القرآن الكريم، «سورة القصص»، الآية ٧٧.

(١٧) المصدر نفسه، «سورة المائدة»، الآية ٣٣.

(١٨) المصدر نفسه، «سورة الروم»، الآية ٤١.

(١٩) محيي الدين الدرويش، إعراب القرآن الكريم وبيانه، ٢١ ج، ط ٨ (دمشق: دار اليمامة للطباعة والنشر والتوزيع: بيروت: دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع: حمص: دار الإرشاد للشؤون الجامعية،

(٢٠٠١)، ج ٦، ص ٦٠.

(٢٠) القرآن الكريم، «سورة الأنبياء»، الآية ٢٢.

(٢١) المصدر نفسه، «سورة المؤمنون»، الآية ٧١.

(٢٢) المصدر نفسه، «سورة النمل»، الآية ٣٤.

(٢٣) المصدر نفسه، «سورة الشعراء»، الآية ١٨٢.

(٢٤) المصدر نفسه، «سورة الرعد»، الآية ٢٥.



إخوته: ﴿قَالُوا تَاللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِي الْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَارِقِينَ﴾<sup>(٢٥)</sup> وقد يعبر أيضاً عن أكل مال اليتيم بغير حق لقوله تعالى: ﴿فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْيَتَامَىٰ قُلْ إِصْلَاحٌ لَهُمْ خَيْرٌ وَإِنْ تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ الْمُفْسِدَ مِنَ الْمَصْلِحِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾<sup>(٢٦)</sup>، أو الإنقاص في المكيال والميزان لقوله تعالى: ﴿وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ﴾<sup>(٢٧)</sup>. وقد يرد أحياناً مصطلح «الفساد» بمعنى اتِّباع الباطل، وصدَّ الحق لقوله سبحانه وتعالى: ﴿فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ﴾<sup>(٢٨)</sup>، ومن الأعمال الباطلة التي تعبر عن مقتضى الفساد موالاة المؤمنين للكافرين لقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ﴾<sup>(٢٩)</sup>.

وفي بعض الأحيان، قد يأتي مصطلح «الفساد» كمقابل لمصطلح «الصلاح»، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَفْسُدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَةَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾<sup>(٣٠)</sup>، وقوله أيضاً ﴿وَوَاعَدْنَا مُوسَى ثَلَاثِينَ لَيْلَةً وَأَتَمَمْنَاهَا بِعَشْرِ فِتْمٍ مِيقَاتٍ رَبِّهِ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَى لِأَخِيهِ هَارُونَ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ﴾<sup>(٣١)</sup>.

وإذا كان القرآن الكريم قد نهى عن الفساد وذمَّ المفسدين، فإن السُنَّة النبوية هي الأخرى شملت العديد من الأحاديث التي احتوت على مصطلح «الفساد»، حيث بيّن النبي (ﷺ) أن محل الصلاح أو الفساد في جسد الإنسان القلب، فقال: «... أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»<sup>(٣٢)</sup>. والفساد هنا ورد بمعنى: تلف الشيء وذهاب نفعه، وتلف القلب يكون بالقيام بأعمال الشرك والبدع والحدق على المسلمين، وغير ذلك من الأخلاق أو العقائد المنافية للشريعة.

ولصلاح القلب، عمل الإسلام على تزكية النفوس وتربيتها بالتركيز على الجانب الأخلاقي فيها، ذلك أن صلاح الخلق صلاح للعمل، ولذلك حذّر النبي (ﷺ) من سوء

(٢٥) المصدر نفسه، «سورة يوسف»، الآية ٧٣.

(٢٦) المصدر نفسه، «سورة البقرة»، الآية ٢٢٠.

(٢٧) المصدر نفسه، «سورة هود»، الآية ٨٥.

(٢٨) المصدر نفسه، «سورة آل عمران»، الآية ٦٣.

(٢٩) المصدر نفسه، «سورة الأنفال»، الآية ٧٣.

(٣٠) المصدر نفسه، «سورة الأعراف»، الآية ٥٦.

(٣١) المصدر نفسه، «سورة الأعراف»، الآية ١٤٢.

(٣٢) أبو زكريا يحيى بن شرف النووي: رياض الصالحين من كلام سيد المرسلين (بيروت: مؤسسة الرسالة ناشرون، ٢٠٠٧)، ص ١٢٩، صحيح مسلم بشرح النووي، ١١ ج (القاهرة: دار المنار للطبع والنشر والتوزيع، ٢٠٠٣)، ج ٦، ص ٢٠٩.

الخلق، فقال: «... وإنَّ سوء الخلق يُفسدُ العمل كما يُفسدُ الخلَّ العسل»<sup>(٢٣)</sup>. ولفظ «الفساد» هنا جاء دالاً على معنى البطلان، وقد يحمل «الفساد» معاني أخرى، كالتبذير والإسراف وإضاعة المال، لحديث رسول الله (ﷺ): «أمسكوا عليكم أموالكم ولا تفسدوها، فإنه من أعمر عمري فهي للذي أعمرها حيّاً وميتاً، ولعقبه»<sup>(٢٤)</sup>، وقد يحمل معنى الخروج عن حال الاستقامة المعينة على العفاف بانتشار الزنا والفجور واتباع الأهواء والشهوات، وذلك لقوله (ﷺ): «إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فأنكحوه إلا تفعلوا تكن فتنة في الأرض وفساد عريض». كما قد يرد «الفساد» بمعنى التفرّق والتمزّق وقطع صلة الرحم لقوله (ﷺ): «ألا أخبركم بأفضل من درجة الصلاة والصيام والصدقة؟»، قالوا: بلى يا رسول الله، قال: «إصلاح ذات البين، فإن فساد ذات البين هي الحالقة». وقد يحمل الفساد معنى تغيير الحال، وذلك بالانتقال من حالة حسنة إلى حالة سيئة، وذلك لقوله (ﷺ): «المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر شهيد»، وقوله أيضاً: «بدأ الإسلام غربياً وسيعود غربياً، كما بدأ فطوبى للغرباء»، قالوا: يا رسول الله ومن الغرباء؟، قال: «الذين يُصلحون ما أفسد النَّاسُ»<sup>(٢٥)</sup>.

ومن خلال عرض مختلف الآيات والأحاديث المشتملة على مصطلح «الفساد» في الشريعة الإسلامية، نجد أنّه مفهوم واسع لم يقتصر على الجانب السياسي، أو الاقتصادي، أو الإداري، أو الاجتماعي، بل اشتمل على جميع مناحي الحياة؛ فالإرهاب فساد، والقتل فساد، والزنا فساد، والربا فساد... لذلك فهو يُستخدم لوصف كلّ سلوك أو فعل منحرف، محرّم وغير صالح، حيث كثيراً ما اقترن بمفهوم الإساءة والتخريب والتدمير والإتلاف في الأرض، وغيرها من المفساد والمنكرات التي نهى الشارع الحكيم عن ارتكابها، وأمر بمكافحتها ومحاربة أهلها، معتبراً إياها خروجاً عن طاعته واتباعاً لدعوات الشيطان ومكائده.

ولذلك، فقد عزّفه د. محمّد المدني بوساق بأنّه: «جميع المحرّمات والمكروهات شرعاً»، وهذا أساسه مخالفة كتاب الله عزّ وجلّ وسنة نبيه (ﷺ).

## ثانياً: الرؤية الفكرية للفساد من خلال مساهمة بعض رواد الحركة الإصلاحية في العالم الإسلامي

رغم التهديد والوعيد الذي حمله القرآن الكريم والسنة النبوية للمفسدين في الدنيا

(٢٣) محمد ناصر الدين الألباني، سلسلة الأحاديث الصحيحة (الرياض: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤)، ص ٤٨.

(٢٤) محمّد بن صالح العثيمين، الدرر البهية في بيان المناهي الشرعية من نصوص الكتاب والسنة النبوية مرتبة على الأبواب الفقهيّة (القاهرة: مكتبة الطبري للنشر والتوزيع، ٢٠٠٧)، ص ٢١٩.

(٢٥) محمّد المدني بوساق، التعريف بالفساد وصوره من الوجهة الشرعية (الجزائر: دار الخلدونية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤)، ص ١٢ - ١٣.

والآخرة، إلا أن الأمة الإسلامية لم تسلم في تاريخها الطويل من ويلات الفساد الذي انتشر فيها انتشاراً واسعاً، غير أن من طبيعة سنّة الله في خلقه أن جعل لكلّ داء دواء، فقيض لهذه الأمة من المفكرين والمصلحين من يعالج أمراضها، ومن أهم هؤلاء المفكرين الذين يحتفظ لهم التاريخ بدورهم في حماية الأمة من براثن الفساد والاستبداد والاستعباد، عبد الرحمن بن خلدون، وعبد الرحمن الكواكبي، ومحمد الغزالي، الذين ساهموا مساهمة فعالة في وصف العلاج لداء الفساد. وسنحاول في ما يلي إلقاء نظرة على مساهمة كل منهم.

## ١ - عبد الرحمن بن خلدون وضرورة الفصل بين الإمارة والتجارة

يُعتبر ابن خلدون أحد المفكرين البارزين الذين اهتموا بدراسة ظاهرة الفساد، وذلك باعتبارها أحد أهم العوامل المؤدية إلى انهيار الدول وخراب العمران، وهو يختلف في تحليله لتفسير أسباب فساد الدولة الإسلامية عن غيره من المفكرين والباحثين الذين يرجعون أصل فسادها إلى انقلاب الخلافة إلى ملك عضوض. أما ابن خلدون، فيعتبر أن هذا الانقلاب، وتغيّر شكل الدولة من حال إلى حال، أمر طبيعي تعرفه أية دولة في عمرها، وهذا ليس له تأثير في فسادها، ذلك أن الدولة، حسب التحليل الخلدوني، لها أعمار طبيعية كما للأشخاص، والأشخاص تختلف حاجاتهم وطبائعهم وغاياتهم وآمالهم بحسب تغيّر مراحلهم، وهم يشبهون في ذلك الدولة التي قد يشوبها الفساد نتيجة لانغماس أهلها في الترف وتمييز حكامها بالاستبداد.

إن الفساد بالمفهوم الخلدوني مرده إلى صراع الحق والباطل، وحسن القصد وسوء القصد، بحسب ما يكون في نفوس الناس من عقد وأمانة، وفي سلوكهم من إخلاص واستقامة، فالذين راعوا الدين واعتمدوا الحق لم يضرهم تبدل شكل الدولة من خلافة إلى ملك، ولا أودى بهم ما سلکوا في حكمهم من مسالك السياسة. والذين طغت عليهم نزعاتهم النفسية، فاستعملوا طبيعة الملك في أغراضهم ومقاصدهم، ونسوا ما كان عليه سلفهم من تحرير القصد فيها واعتماد الحق في مذهبها، هم الذين نبذوا الدين وراءهم ظهرياً، فتغيّر الوازع الديني إلى مقاصد التغلب والقهر والتقلب في الشهوات والملذذ، وأصبحت العصبية عصبية دولة لا عصبية دين<sup>(٢٦)</sup>.

وقد اعتبر ابن خلدون أن هذا التحول الحاصل بتغيّر الوازع الديني الذي يربط بين حاجات الدنيا وغايات الآخرة إلى وازع دنيوي مرتبط بالدنيا فقط، هو أصل كلّ فساد ومحور كلّ إفساد. ولذلك، فقد هاجم النظام الدنيوي العلماني القائم على تحقيق مصالح الدنيا فقط، واصفاً إياه بأنه يعمل على إهدار الجانب الأخلاقي في المجتمع، ويدعو إلى تغليب المصالح الشخصية والذاتية على حساب مصالح الأمة، فهو بذلك نظام يعتمد على نظرية البقاء للأقوى وليس البقاء للأصلح.

(٢٦) عبد الحليم عويس، التأصيل الإسلامي لنظريات ابن خلدون (الدوحة: دار الهدى، ١٩٩٦)، ص ٣٠ - ٣١.

ويعطي ابن خلدون بعد ذلك الحلّ لتجنب كلّ مساوئ نظام الحكم العلماني الذي اعتبر «ما كان منه بمقتضى القهر والتغلّب وإهمال القوة العصبية في مرعاها، فجور وعدوان... وما كان منه بمقتضى السياسة وأحكامها، فمذموم أيضاً لأنه نظر بغير نور الله، ومن لم يجعل الله له نوراً، فما له من نور»، ودواء ذلك، بحسب ابن خلدون، يكمن في ضرورة اللجوء إلى الاحتكام للشريعة الإسلامية التي يعتبرها الضمان الوحيد لكفاية العباد وإسعادهم وضمان انقيادهم والتزامهم، حيث قال: «فقد أغنانا الله عن الحكومات الدنيوية في الملة والخلافة، لأن الأحكام الشرعية مغنية عنها في المصالح العامة والخاصة وأحكام الملك مندرجة فيها...»<sup>(٢٧)</sup>.

إن من طبيعة الملك الذي هو بالعصبية، بحسب المنهج الخلدوني، الانفراد بالمجد والاستبداد بالأمر، فإذا استحكم هذا الانفراد، واستولى السلطان على جميع العصبيات الأخرى، حصل الترف، وبذلك اتجهت الدولة إلى الفساد، وقبلت على الهرم، لوقوع أهلها في المذلة والاستعباد<sup>(٢٨)</sup>. ولذلك، فقد حاول ابن خلدون تنظيم العلاقة بين الراعي والرعية، حيث كان من الرافضين لفكرة تزواج الثروة بالسلطة، داعياً إلى ضرورة العمل على الفصل بين الإمارة والتجارة، لما في هذا الأمر من مضرة بالرعايا ومفسدة للجباية، ذلك أن الحاكم، في نظر ابن خلدون، يجب أن يكون خادماً للرعية، مهتماً بشؤونها، لا منافساً لها، على أساس أن المنافسة بينهما إنّ حدثت فهي غير متوازنة وغير متكافئة، لأن السلطان يملك من النفوذ ما يمكنه من التحكم في الأسواق بتحديد أثمان السلع والخدمات. وهذا ما يؤدي إلى نفور الرعية من الأعمال الفلاحية والتجارية لعدم مقدرتهم على منافسة حاكمهم، مما يؤثر سلباً في توازن الدولة، إذ يحقق الحاكم أرباحاً كثيرة، فتزداد ثروته، ويكثر جاهه وسلطانه، ويستبد على رعيته، فلا يقرب إلا من والاه، ولا يتجبر إلا على من عاداه، فينتشر الجور والظلم والاستبداد والاستعباد.

إن الوصل بين الإمارة والتجارة، بحسب ابن خلدون، هو نوع من الظلم المؤذن بخراب العمران، إذ العدوان على أموال الناس يتسبب في توقفهم عن السعي إلى تحصيل الكسب، وهذا ما يؤدي إلى كساد الأسواق، «... فتكسد الأسواق لفساد الآمال، ويؤذن ذلك باختلال العمران، ويعود على الدولة ولا يزال ذلك يتزايد إلى أن تضمحل»<sup>(٢٩)</sup>.

من خلال ما سبق، يتضح أن تلازم السلطة والثروة، بحسب ابن خلدون، أمر خطير يعمل على تهديد استقرار الدولة واستمرارها، ذلك أن المال إذا اجتمع لذي سلطان كان وسيلة للتسلط والاستبداد، والنفوذ إذا كان لذي مال كان وسيلة للثراء والإفساد. ولا شك في أن ابن خلدون، وإن تحدّث عن هذه الأمور منذ قرون خلت لها سماتها ومميزاتها، فإنه يعبر

(٢٧) المصدر نفسه، ص ٧٤ - ٧٥.

(٢٨) فهمي جدعان، المقدس والحرية: وأبحاث ومقالات أخرى من أطياف الحداثة ومقاصد

التحديث (بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٩)، ص ٣٩١.

(٢٩) المصدر نفسه، ص ٧٤ - ٧٥.

عن واقع تعيشه أغلب دول هذا العصر الذي عرف العديد من التحولات والتقلبات، وهذا يدل على نظرته الثاقبة للأمور وقدرته على استشراف الواقع الإسلامي في تلك الفترة.

إن دراسة أسباب فساد الأمة الإسلامية، والعمل على توحيد الجهود من أجل إصلاحها، لم يكن حكراً على عبد الرحمن ابن خلدون فقط، وإنما شاركه في ذلك العديد من المفكرين والمصلحين، لعل أبرزهم عبد الرحمن الكواكبي الذي كان قلماً متميزاً وصوتاً ثائراً ضد كل مظاهر الفساد والإفساد والاستعباد. وهذا ما سنحاول تناوله من خلال دراسة نظرة الكواكبي إلى العلاقة الجدلية بين الفساد والاستبداد.

## ٢ - عبد الرحمن الكواكبي والعلاقة الجدلية بين الفساد والاستبداد

يُعتبر عبد الرحمن الكواكبي أحد المفكرين المصلحين الذين ثاروا ضدّ الظلم والاستبداد، ونهوا عن كل ما يؤدي إلى الفساد، لما له من آثار خطيرة في طغيان الحاكم المستبد وإذلال المحكوم المستبعد. ولا شك في أن البيئة التي عاش فيها الكواكبي، وما لازمها من انتشار لمظاهر الفساد، قد ساعدته على وصف الظاهرة وصفاً دقيقاً وتشخيصها تشخيصاً بليغاً؛ إذ يرجع عوامل تفشيها إلى تسلط الحكام واستبدادهم على رعيتهم، ولذلك فهو يصف المستبد بقوله: «المستبد عدو الحق، عدو الحرية، وقاتلها... والمستبد إنسان مستعدّ بالطبع للشر لا يفعل الخير إلا مرغماً... وهو يودّ أن تكون الرعيّة كالغنم، دُرّاً وطاعة، وكالكلاب تذلاً وتملقاً». وهذا نوع من الاستبداد الناتج من الاستبداد الذي قلب المفاهيم، فجعل من الرعية خدماً للرعاة، وفي هذا يقول محمد العربي فلاح: «لقد وضع الناس الحكومات من أجل خدمتهم، ولكن الاستبداد قلب الموضوع، فجعل الرعية خادمة للرعاة، فقبلوا وقنعوا»<sup>(٤٠)</sup>.

إن الرضا بالاستبداد والقبول بالاستعباد هما نوع من ضنك الحياة الدنيا، لما فيهما من إهدار لكرامة الإنسان وتضييع لحقوقه، فالإنسان ما ولد في هذا العالم إلا ليكون حراً مبدعاً، لا أسيراً مقلداً، والناس في الإسلام سواسية لا فرق بين غنيهم وفقيرهم، ولا بين حاكمهم ومحكومهم، إلا بالتقوى. ولذلك، كان الإسلام نابذاً لكل أشكال الاستعباد والاستبداد، داعياً إلى الحرية، واضعاً لها نظرية مستمدة من مقولة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه): «متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً».

من هنا اعتبر الكواكبي أن العيش في نعيم الحرية حياة، والعيش تحت جحيم الاستبداد موت، ولذلك دعا إلى ضرورة الموت من أجل الحياة بالثورة ضد كل رموز الاستبداد ومحاربة كل مظاهر الفساد، فقال: «إن الهرب من الموت موت، وطلب الموت حياة، وإن الخوف من التعب تعب، والإقدام على التعب راحة... والحرية هي شجرة الخلد وسقيها قطرات من الدم المسفوح... والأسارة هي شجرة الزقوم وسقيها أنهر من دم

(٤٠) محمد العربي فلاح، آفة الشعوب نُظُمها (الجزائر: دار الخلدونية للنشر والتوزيع، ٢٠٠٤)، ص ١٣٨ و١٤٥.

المخاليق والمخانيق... والاستبداد لو كان رجلاً وأراد أن ينتسب، لقال: أنا الشر، وأبي الظلم، وأمي الإساءة، وأخي الغدر، وأختي المسكنة، وعمّي الضرّ، وخالي الذلّ، وابني الفقر، وبنتي البطالة، وعشيرتي الجهالة، ووطني الخراب، أما ديني وشرفي وحياتي فامال، المال، المال...»<sup>(٤١)</sup>.

لقد أدرك الكواكبي أن الاستبداد هو الشر كله، وأن المال هو حياته وشرفه ودينه، وبذلك فهو البيئة التي يتفشى فيها الظلم والفساد، فامال وسيلة السلطان لفرض استبداده من خلال شراء ذمم عماله وأتباعه، وحيث يكون الحاكم مستبدّاً فإن رغبة الرعية في الإقدام على تحصيل المال تكون ضعيفة، وذلك لانعدام الأمن والأمان، وللخوف من التعرّض للسلب والنهب على يد المستبدين والأعوان.

وفي هذا يقول الكواكبي في كتابه طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد: «إن حفظ المال في الإدارة المستبدة أصعب من كسبه، لأن ظهور أثره على صاحبه مجلبة لأنواع البلاء عليه، ولذلك يضطر الناس زمن الاستبداد لإخفاء نعمة الله والتظاهر بالفقر... وأن العاقل من يخفي ذهبه وذهابه ومذهبه، وأن أسعد الناس الصلوك الذي لا يعرف الحكام ولا يعرفونه»<sup>(٤٢)</sup>، ولذلك فبدل أن يكون المال مصدر سعادة وهناء يصير عامل ذل وشقاء، والأمة التي يكثر مالها وأغنياؤها تكون أكثر عرضة للاستعباد، «فظروف الاستبداد تجعل المال في أيدي الناس عرضة لسلب المستبد وأعوانه وعماله... وعرضة أيضاً لسلب المعتدين من اللصوص والمحتالين الراتعين في ظلّ الإدارة الاستبدادية، وحيث المال لا يحصل إلا بالمشقة، فلا تختار النفوس الإقدام على المتاعب مع عدم الأمن على الانتفاع بالثمرة... وهكذا يختلّ ميزان الحياة، فيسعى النظام الاستبدادي لركوب الرعية وإذلالها، مغرراً بها باستعمال السماسرة أنفسهم من صفوفها، لمساعدته على التفرير بالأمة والإمعان في ذلتها وخمولها، مستغلاً في ذلك أشباه العلماء أنفسهم، وهو يغريهم بالمناصب ليكونوا له أعواناً خبثاء ينفعونه بدهمائهم، ثمّ هو بعد التجربة إذا خاب ويئس من إفسادهم يبادر إلى إبعادهم والتنكيل بهم، ولهذا لا يستقرّ عند المستبد إلا الجاهل العاجز»<sup>(٤٣)</sup>.

لقد حاول الكواكبي، من خلال العديد من مؤلفاته، تشخيص أسباب مرض الأمة الإسلامية بتحديد مواطن الخلل والقصور فيها، ودراسة أسباب التقصير، فوجد أن أصل دائها، وسبب بلائها، يكمن في استبداد حكامها واستعباد رعيّتها. وهذا ما خلق بيئة مناسبة لتشكل الفساد الذي أصاب الحياة العامة للمسلمين بتشوّهات عديدة في قيمهم الأخلاقية

(٤١) محمّد عمارة، عبد الرحمن الكواكبي: شهيد الحرية ومجدد الإسلام، ط ٢ (القاهرة: دار الشروق، ١٩٨٨)، ص ٨١.

(٤٢) عمر بن قينة، الرؤية الفكرية في الحاكم والرعية لدى ابن المقفع وابن العنابي والكواكبي (عمّان: دار أسامة للنشر والتوزيع، ٢٠٠٠)، ص ٨٠ - ٨١.

(٤٣) المصدر نفسه، ص ٨١.

وعقائدهم الدينية، إذ تحوّل الفساد في ظلّ حكومات الاستبداد إلى نظام حياة، إذ أصبح خادماً الرعية حاكماً لا يريد من رعيته إلا أن تكون خادمة له.

وإذا كان الكواكبي قد ربط بين جنوح الحكام إلى الاستبداد، وانتشار مظاهر الفساد، في المجتمعات الإسلامية، فإن الغزالي لم يختلف عنه كثيراً في هذه القضية، بل اعتبر أن الفساد لا ينمو إلا في بيئة حكامها مستبدون ورعيته مستعبدون... وهذا ما سنحاول تناوله بالدراسة والتحليل من خلال التطرق إلى أسباب فساد الأمة الإسلامية وفق رؤية محمد الغزالي للفساد.

### ٣ - محمد الغزالي: الفساد بين مخالب الاستبداد وقهر الاستعباد

لقد كان محمد الغزالي أحد المفكرين البارزين الذين اهتموا بدراسة شؤون الأمة الإسلامية، فألّف عدة كتب تبرز حالها، وتبيّن أسباب دائها، وتصف أدواءها، فأرجع سبب بلائها إلى انتشار الفساد فيها نتيجة لاستبداد حكامها، ولذلك فقد هاجم الحكام واعتبرهم الحلقة الأضعف في تسيير شؤون الأمة بسبب فسادهم وإفسادهم، إذ لم يكن همّهم إلا المحافظة على عروشهم وتحقيق مصالحهم، ولو على حساب شعوبهم، بل الأكثر من ذلك فقد وصفهم بأنهم خدّام الاستعمار لا خدّام الرعية، دعاة للتسلط، أعداء للحرية، وذلك بسبب منعهم الاحتكام إلى الشريعة الإسلامية، وتغييب استعمال مفهوم الشورى في حياتهم السياسية، وفي هذا يقول: «إن الفساد السياسي مرض قديم في تاريخنا، هناك حكام حفروا خنادق بينهم وبين جماهير الأمة... لأن أهواءهم طافحة وشهواتهم جامحة... لا يؤتمنون على دين الله ولا دنيا الناس... ومع ذلك فقد عاشوا آماداً طويلة، وقد عاصرت حكماً تدعو عليهم الشعوب، ولا نراهم إلا حجارة على صدرها توشك أن تهشم... انتفع بهم الاستعمار الشرقي والغربي على سواء في منع الجماهير من الأخذ بالإسلام والاحتكام إلى شرائعه... بل انتفع بهم في إفساد البيئة حتّى لا تنبت فيها كرامة فردية ولا حرية اجتماعية... إن الفساد السياسي عندنا كان السرطان الذي أودى بحضارتنا ورسالتنا خلال قرون مضت... إن حكامنا كانوا القشرة العفنة في كياننا من زمن بعيد...»<sup>(٤٤)</sup>.

وبالرغم من مهاجمة محمد الغزالي للحكام المستبدّين، إلا أنّه لا يعتبرهم وحدهم المسؤولين عمّا حلّ بالأمة الإسلامية من تخلف وانحطاط، بل تشاركهم في ذلك رعيته التي اعتمدت أسلوب السكوت عن طغيانهم وإفسادهم. لذلك، فهو يفرّق بين نوعين من الفساد: فساد الدولة، وفساد الأمة، فالأوّل لا يكون إلا بانتهاج الحكام لسياسة الاستبداد، والثاني لا يتأتى إلا بقبول الرعية بالاستعباد، وبين الاستبداد والاستعباد يتفشى داء الفساد، فتنتشر السرقة والنهب والغشّ وتسوء الأخلاق، وفي بيئة كهذه تتغيّر المفاهيم، وتنقلب الموازين،

(٤٤) محمد الغزالي، الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية: أزمة الشورى (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥)، ص ٧ و ٢١.

فتصبح الفضائل رذائل، والرذائل فضائل، فلا يؤمر بمعروف ولا ينهى عن منكر، وفي هذا يقول الغزالي: «إن ولاة الأمر لما استبدّوا بالحكم واستعبدوا الشعوب، عرفت الرعية عنهم الكثير من المناكر، ثم ابتلعت ما عرفت أو تناجحت به في خفوت... إن الدولة عندما تفسد بالاستبداد، وعندما تفسد الأمة بالاستعباد، يصبح الرياء هو العملة السائدة، وقاعدة تقرير الأمجاد لطلاب المجد الكاذب، وتقريب المنفعة لطلاب المنفعة الزائلة، وهو حينئذ خلق السادة والعييد<sup>(٤٥)</sup>. إن المداينة في الحق حرام، ونحن ما رضىنا ولن نرضى لأنفسنا أن ندهن صاحب حكم أو صاحب غنم، فالمداينة هي جرثومة الشر التي مكّنت للفساد من أن يمتد دون نكير<sup>(٤٦)</sup>».

إن أشدّ المحن التي تؤثر في الأمم، مهما تكن أيديولوجيتها، أن يكون حاكمها مستبدّاً فاسداً، ومحكومها مستعبداً مستعداً للاستفساد، وذلك لما له من تأثير في إقامة العدل فيها، فتتحول إلى مجتمعات يحكمها قانون الغاب، قانون يسري على اللص الضعيف الذي إذا سرق أقاموا عليه الحدّ، أما مافيا الفساد من كبار اللصوص والمنحرفين، فإنّهم معفون من تطبيق القانون عليهم، إذا سرقوا وجدوا لهم من الأعداء ما يثبت براءتهم، بل إن هناك من اللصوص من لا يقدّم إلى العدالة أصلاً، ولا يُتهم ولا يُنتقد، وحيثما غاب العقاب يصبح المجتمع فريسة سهلة لتفشي الفساد والاستبداد. وقد عبّر الغزالي عن ذلك في كتابه: **الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية**، قائلاً: «إن اللصوص يسرقون ويهربون، بعضهم يدرّكه العقاب، والآخرون يفرّون بما سرقوا ونهبوا دون أن يمسّهم أذى، فالذي يسرق الرغيف يدخل السجن، والذي يسرق الفرن لا يدخل السجن، لأن سارق الرغيف لصّ ضعيف، أما سارق الفرن فهو لصّ قادر يتعاون مع عصابات قادرة، ويجد من الأموال التي سرقها ما يقدره على تدويخ العدالة، فهو يوكل أحسن المحامين عنه، وبين براءة الدفاع وعناء القضاء تذهب الحقيقة... وإفلات مجرمين من يد العدالة غير مستغرب، ولكن المستغرب وجود لصوص من طراز آخر، لصوص شرفاء جداً لا يُتهمون ولا يقدّمون إلى العدالة أبداً، لصوص لهم مناصب مهيبة وألقاب طنانة وكلمات نافذة... سرقوا شعوبهم جهرة، ونمت لهم ثروات طائلة، واحتبست الألسن في الحلق، فما تقدر أن توجه إليهم لفظاً...»<sup>(٤٧)</sup>.

وبوجه عام، فإن الغزالي، في تحليله لسرّ نكبة الأمة الإسلامية، لا يعتبر أن ما أصابها من فساد في نظام الحكم وسياسة المال أزمة سياسية فقط نتجت من استبداد الحكّام وتغييبهم لمفهوم الشورى عن الممارسة، وإنما هي في الأصل أزمة أخلاقية أصابت ضمير الأمة في إيمانها وعقيدتها وسلوكها، أزمة عبّرت عن صراع فكري بين الأنا والآخر، صراع

(٤٥) محمّد الغزالي، **الإسلام والاستبداد السياسي** (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٧)، ص ٣٣ و٤٣.

(٤٦) محمّد الغزالي، **الاستعمار: أحقاد وأطماع**، ط ٤ (القاهرة: دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٥)، ص ٢٣٤.

(٤٧) الغزالي، **الفساد السياسي في المجتمعات العربية والإسلامية: أزمة الشورى**، ص ١٢٢ – ١٢٣.



بين شعوب مسلمة تريد الاحتكام إلى الإسلام بما يحمله من عدالة ونبذ للاستبداد والظغيان، وحكام لا همّ لهم إلا الوصول إلى سدّة الحكم مهما كانت الأشكال وتعدّدت الأثمان، وقد عبّر الغزالي عن ذلك بقوله: «إن أيّ شعب مسلم يريد أن يحكمه الإسلام، ولكن إرادته هذه تكبت بكلّ سلاح، وحنين المسلمين إلى عقائدهم وشرائعهم لا ينقطع، ولكنكم - يقصد أشباه دعاة الديمقراطية - تسكنون هذا الحنين بأساليب لا حصر لها: تزوير الانتخابات، تزوير الإعلام، تزوير المقالات... فإذا لم يغن هذا التزوير جاء دور السيف فكتمّ الأفواه وأنشأ المنافي...»<sup>(٤٨)</sup>.

وتساءل الغزالي بعد ذلك عمّا يعنيه تزوير الانتخابات في قطر ما؟ ثمّ أجاب قائلاً: «إن هذا التزوير يحدث دماراً أخلاقياً أوسع من الدمار المادي الذي يحدثه أي زلزال رهيب... جيش من الرجال ذوي المناصب الكبرى والصغرى يتحول إلى خلية نحل في مصنع للأكاذيب واسع الدائرة، هادر الآلات، يعاون بعضه بعضاً في اختلاق الآراء وتسجيلها وتصعيدها وترحيلها من بلد إلى بلد، ثمّ تلتقي آخر الأمر كما تلتقي شبكة المجاري القذرة لتخبر العالم كلّ أن فلاناً أحرز من أصوات الناخبين كذا وكذا... ونجح نجاحاً كاسحاً»<sup>(٤٩)</sup>.

من الواضح أن محمّد الغزالي قد شخّص واقع الأمة الإسلامية تشخيصاً دقيقاً يعبر عن حقيقة واحدة هي أنّها انتقلت من أمة إصلاح إلى أمة تفسّى فيها الفساد بمختلف أشكاله وألوانه، فأصبح مستعلناً بعد أن كان يتمّ في السر، وأصبح يقابل بالقبول والافتخار بعد أن كان يقابل بالرفض والاستنكار، وبعد أن كان عبارة عن أعمال استثنائية أصبح اليوم نظام حياة أفرزته بيئة الاستبداد والرضا بالاستعباد.

## خاتمة

نخلص مما تقدّم إلى حقيقة مفادها أن تحديد مضامين مفهوم الفساد في الفكر الإسلامي تختلف من مفكر إلى آخر، غير أنّها تشترك في أنّها تعبّر عن عملية الانتقال من حالة حسنة إلى حالة سيئة، نتجت من تغييب الحكم بالشريعة الإسلامية والانحراف عن ينابيعها النقية التي تذرّم الفساد وتدينه أشدّ الإدانة، واستبدالها بأنظمة الحكم العلمانية القائمة على الفكرة المكيافيلية التي مفادها أن الغاية تبرّر الوسيلة، مما أنتج في النهاية بيئة خصبة مشجعة على انتشار الفساد الذي تفسّى فيها بعد ولوج حكامها عالم التجارة، في محاولة منهم للجمع بين الثروة والسلطة، وهذا ما أدى بهم إلى السير بالأمة نحو حياة الترف والانغماس في اللذات والشهوات، فشجعوا على الفساد واعتمدوا سياسة التسلّط والاستبداد. أما الرعية فلم يكن لها إلا السكوت والرضا بالاستعباد، ولذلك فالفساد في المفهوم الإسلامي، وإن تمّ التركيز فيه على فساد السلاطين لما له من تأثير في إفساد

(٤٨) محمّد الغزالي، الحق المر (الجزائر: دار الشهاب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٨٧)، ص ٨٦.

(٤٩) محمّد الغزالي، مشكلات في طريق الحياة الإسلامية (الجزائر: مكتبة رحاب، ١٩٨٩)، ص ٤٢.

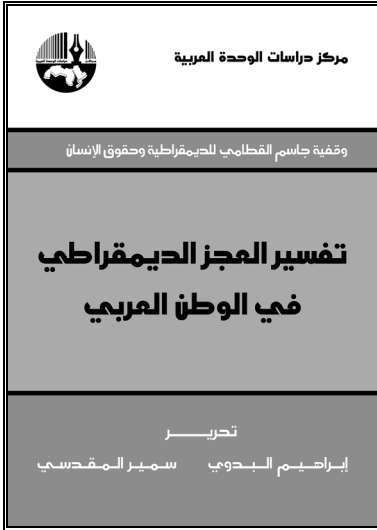
المحكومين، إلا أنه في الحقيقة تعبير عمّا أصاب ضمير الأمة من تدهور أخلاقي قيمى، وهو المعيار الأساسي الذي ركّز عليه أغلب المفكرين والباحثين في تحليلهم لظاهرة الفساد، وتحديد مضامينها في الفكر الإسلامي، فالإنسان لا يفسد في نظرهم إلا إذا فقد الصلة بربه، وخرج عن طاعة أو امره واجتناب نهيه وزجره، وهذا بغية تحقيق مآربه، ولا يتم ذلك إلا باتّباع السبل الشيطانية واسترضاء النفس البشرية التي تتسم بالجشع والطمع وحبّ المال، حتّى وإن كان ذلك لا يتحقق لها إلا عن طريق تقديم ما كان فاسداً من الأعمال □

## صدر حديثاً عن مركز دراسات الوحدة العربية

### تفسير العجز الديمقراطي في الوطن العربي

تحرير

إبراهيم البدوي وسمير المقدسي



● يشكّل هذا الكتاب حول الديمقراطية في الوطن العربي مساهمة قيّمة في تحليل العجز الديمقراطي في المنطقة العربية. وخلافاً لأبحاث أخرى حول الديمقراطية، يركّز الكتاب على الدوافع الرئيسية وراء العجز الديمقراطي في بلدان عربية مختلفة، وذلك من خلال مجموعة مركّبة من التفسيرات التحليلية.

يتخطّى الكتاب التفسيرات الثقافية الفكرية المبسّطة، فيشخص الدور الهام للنزاعات والنفط، كما يوضح تأثير القيادة السياسية والتدخلات الأجنبية واستيعاب النخبة من قِبَل السلطة كعوامل معيقة لعملية الديمقراطية في المنطقة، وذلك رغم تقدمها الاجتماعي والاقتصادي اللافت.

وميزة مهمة أخرى لهذا الكتاب، أنه يجسّر الفجوة بين النظرية والتاريخ.

٤٩٥ صفحة

الثمن: ٢٠ دولاراً

أو ما يعادلها